

التزكية للمصلحين (٣)

الشيخ أحمد السيد.



الفَهرس

المقدمة: ٢
وسائل مقدمة وشاملة للتزكية: ٤
١) دوام استحضار حقائق الإسلام التي لا يصح الإسلام إلا بها: ٤
٢) العلم بالله ﷻ: ٨
٣) إدراك مركزية العمل في الإسلام وبذل الوسع فيه: ١٠
وسائل تزكوية متعلقة بالتصفية والتطهير والتخلية: ١٢
١) تربية النفس على مخالفة الهوى: ١٢
٢) دوام التوبة وتجديدها ولزوم الاستغفار: ١٤
٣) المجاهدة: ١٦
٤) التوكل على الله ﷻ في ترك المعاصي: ١٧
وسائل تزكوية متعلقة بالزيادة والنماء (التحلية): ١٨
١) العناية التامة بأعمال القلوب اهتمامًا وعملًا: ١٨
٢) الدعاء: ١٩
٣) الصلاة: ٢٠
٤) التفكر: ٢١
٥) كثرة ذكر الله ﷻ: ٢٢

المقدمة:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا تبارك وتعالى ويرضى، اللهم لك الحمد لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك مُحَمَّد.

يا أهلًا وسهلًا ومرحبًا، حياكم الله، شرفتم ونورتم، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك لنا ولكم في هذه المجالس، وأن يجعلها مجالس خير وبركة.

اليوم هو اللقاء الثالث ضمن لقاءات التزكية المصلحين، وهذه السلسلة هي سلسلة تختلف عن السلاسل التزكويّة التي قدمتها سابقًا من حيث أطراف تناول الموضوع، ومن حيث حتى المضمون والمحتوى. أخذنا "مركزية التزكية" في المحاضرة الأولى، ثم أخذنا "معالم التزكية"، وهنا نحن اليوم مع عنوان "وسائل التزكية"، ثم سنتناول بإذن الله "عوائق التزكية". فصارت مركزية التزكية، ثم معالمها، ثم وسائل تحقيقها، ثم العوائق التي تحول بين الإنسان وبين تحقيق التزكية. فهذه أربعة عناوين، وكل عنوان منها يتناول جزءًا أو طرفًا أو ركنًا من أركان التزكية، وبمجموع هذه العناوين مع تفاصيلها يرجو الإنسان أن يكون قد قدم شيئًا فيه شيءٌ من التكامل في موضوع التزكية. وتنقيب أو عنونة المحاضرات بـ"التزكية للمصلحين"؛ هذا فيه استحضار ومراعاة أن بعض المضامين يُراعى فيه الإنسان العامل المصلح الذي قد يتعرض لبعض التحديات التزكويّة أثناء الطريق.

اليوم نأتي لسؤال الكيف. المحاضرة الأولى كانت سؤال لماذا؟ المحاضرة الثانية كان السؤال ماذا؟ وهنا سؤال كيف؟ لكن قبل أن أبدأ بسؤال الكيف أو الجواب عن سؤال "كيف تحصل التزكية؟"، "كيف يقوم الإنسان بعملية التزكية؟" أود أن أُنبه إلى قضية مهمة جدًا ألا وهي: أن تحقق التزكية عند الإنسان لا يكون عبر معادلات وإجراءات إذا عملها الإنسان فستحصل التزكية قطعًا، يعني هي ليست تجربة روحية شرقية يقوم الإنسان فيها بمجموعة من الطقوس، ويلتزم بعدد معين من الأيام بأوقات معينة وهيئات معينة حتى يصل إلى نتيجة روحية! التزكية لا تكون هكذا، حتى لو كانت وسائلها شرعية، يعني حينما نتكلم عن الوسائل الآن هذا لا يعني أنه من فعل واحد اثنين ثلاثة فبعد خمس أيام إن شاء الله سيكون وصل لمرحلة التزكية بدرجة عالية! هي لا تكون هكذا، هذا بذلٌ

الأسباب، بعد ذلك تحقق التزكية في الإنسان هو رزق وهبة من الله سبحانه وتعالى. كما أنك تطلب الرزق من الله باتخاذك الأسباب في أي قضية من القضايا الدنيوية؛ فكذلك تُطلب الأرزاق الدينية من الله سبحانه وتعالى ببذل أسبابها. فكما أن الطعام والشراب والسكن والملبس، إلى آخره، هي هبات وأرزاق من الله سبحانه وتعالى، وجعل لها أسباب يبذلها الإنسان بالتجارة أو غيرها من متطلبات الأسباب؛ فكذلك التزكية هي رزقٌ من الله سبحانه وتعالى يطلب الإنسان له أسبابه وينتظر الرزق والقسمة. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، ومع ذلك أخبرنا بوسائل تحقق التزكية. فهذه نقطة مهمة في البداية حتى لا يكون الإنسان متصورًا الأمور على غير حقيقتها.

لو تتذكرون في المَعَالِم في المحاضرة الماضية، معالم التزكية، قسمنا القضية إلى قسمين:

١) معالم في التصفية والتخلية.

٢) معالم في الزيادة والنماء.

وقلنا أن هذان محورا التزكية من حيث الموضوعات الكبرى، ثم بعد ذلك هناك تفاصيل في داخل هذه المعالم.

اليوم في الوسائل سنسير على هذين القسمين أيضًا، يعني وسائل في التزكية تدخل في شق التخلية والتصفية والتهذيب، ووسائل لتحقيق التزكية تدخل في قسم الزيادة والنماء.

وهنا أريد أن أذكر فائدة منهجية في البحث أو في الالقاء والتقديم؛ نحن نتكلم عن التزكية، المفترض أن إذا ذكرت وسيلة من الوسائل أن أربطها بقضية التزكية، **لماذا؟** طبعًا هي معلومة بديهيّة ولكنها في الواقع مع الأسف في التطبيق العملي ليست بديهية، يعني أحيانًا تأتي تتكلم عن قضية فتقول مثلًا: وسائل التزكية، الدليل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. تمام الكلام لا يوجد فيه خطأ، لكن الفكرة أنه أنا كمتلقي أنتظر منك أن تربط لي بين الدعاء وبين الموضوع المحدد الذي هو التزكية، فإذا قلت لي الدعاء ثم ذكرت لي الأدلة على فضل الدعاء مثلًا ومكانته؛ فأنت أفدتني معلومة في فضل الدعاء ومكانته، لكن لم تعطيني ما يطابق الموضوع بالضبط الذي هو علاقة الدعاء بالتزكية تحديدًا. وهذه القضية على بداهتها كما قلت إلا أنها تحتاج من يراعي تجاوزها وتحقيق الصواب فيها،

هذا يتناول الموضوعية من وسطها، يعني يكون مثريًا ومفيدًا كثيرًا، أكثر ممن يأتي بكلام كثير ثم إذا أردت أن تستخلص ما يطابق من المضمون العنوان؛ قد تجد مفارقات كثيرة. وهذه مشكله منتشرة جدًا. هذا غير العناوين الرنانة أصلًا التي تراها في بعض الكتب ثم تفتحها ولا تجد فيها شيئًا!

- **الخطة المتبعة في المحاضرة:**

إذن خطة اليوم في تناول قضية وسائل التزكية هي: أني سأذكر وسائل متعلقة بالتهذيب، والإبعاد، والتخلية والتصفية، ووسائل متعلقة بالزيادة والنماء. قبل ذلك سأذكر ثلاث أو أربع وسائل تزكويّة هي تكون كالشرط لوسائل التزكية، وكالمقدمة لوسائل التزكية، وقد تشمل الاثنين، القسمين. يعني قبل أن أذكر الوسائل التزكويّة الخاصة بالتصفية، أو الخاصة بالزيادة والنماء، أريد أن أذكر بعض الوسائل التي تعتبر شاملة للاثنين أو مقدمة للاثنين أو شرط للاثنين، فهي من الأهمية بمكان بحيث أنها تُفرد وتستحق أن تكون مقدمة للقسمين من وسائل التزكية. إذن هذه البداية يعني قد تكون من أهم الوسائل التي يمكن أن تُذكر في هذا اللقاء.

وسائل مقدمة وشاملة للتزكية:

إذن **القسم الأول: وسائل تزكوية عامة.**

١) دوام استحضار حقائق الإسلام التي لا يصح الإسلام إلا بها:

الوسيلة التزكويّة الأولى: دوام استحضار الحقائق الإسلامية الكبرى التي من شأنها أن لا يصح إسلام المرء إلا بها أصلاً. وذلك نحو: حقيقة أن الله هو الإله الحق، وأن الإنسان سيغادر الدنيا، وأن الآخرة حق، والبعث، وأن هناك جنّة ونار. وهذه الحقائق هي حقائق لا يصح إسلام المرء إلا بها أصلًا، يعني لا يصح أن يكون الإنسان مسلمًا ولا يؤمن باليوم الآخر، وقبل ذلك لا يكون مؤمنًا بالله سبحانه وتعالى.

حسنًا هذه الوسيلة **ما وجه ذكرها وإفرادها والبدء بها والتأكيد على أهميتها وعلاقتها بالتزكية؟**

من الأمور العظيمة في الإسلام أنه على عظمته، وسموه، وعلوه وشرفه؛ هو بسيط، وسهل، وقريب.

والحقائق التي تُوصل الإنسان إلى رضا الله سبحانه وتعالى، والطرق التي توصل الإنسان إلى رضا الله

سبحانه؛ هي ليست طُرقًا معقدة، لا يحتاج أن أكون دارس فلسفة إسلامية حتى أصل إلى درجات عالية في التزكية وفهمها -إذا لم تبعدك أصلًا- ولا أحتاج أن أكون قد خَتمت العلوم الشرعية حتى أصل إلى مقامات عالية في هذا الإسلام، وفي هذا الدين.

صحيح العلم بلا شك أنه وسيلة من وسائل المهمة، لكن الفكرة أن الذي يُوصل الإنسان إلى أعلى المقامات هو جنسه وأصله، هو الذي يدخل الإنسان في أول المقامات، الذي يوصل الإنسان إلى أعلى المقامات؛ هي درجة من عمل أو شيءٍ أصله هو الذي يدخل الإنسان في أول المقامات، **الفرق هو في درجة الاستحضار، وفي مقدار اليقين، وفي دوام التصديق بهذا المعنى**، وإلّا فهو من حيث أصل المعنى هو أصل دخول الإسلام أساسًا. ولذلك تجدون أن بعض من يدخل في الإسلام من أول أيامه إذا كان استحضاره لهذه الحقائق الكبرى عاليًا؛ يجده يعمل أمورًا لا يعملها إلا من بلغ درجات عالية في التزكية!

ومن أبرز الأمثلة على ذلك السحرة، سحرة فرعون الذين آمنوا، في نفس المقام والموقف الذي ءامنوا فيه هُدِّدوا بقطع الأيدي والأرجل والصَّلب، وقالوا كلامًا حين يستمع إليه الإنسان يقول هذا الكلام لا يقوله إلا إنسان قد أفنى ثلاثين سنة في قيام الليل والسجود بين يدي الله سبحانه وتعالى! أليس كذلك؟ ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾؛ كلامٌ هو خلاصة ما جاءت به الأنبياء للوصول بالبشرية في درجات التزكية الإيمانية. وكان ذلك لم يكن مسبوقًا بمقامات طويلة تطلبت زمنًا كبيرًا في التزكية. ما هي الفكرة؟ لماذا؟ القضية ليست في طول الزمن، هي القضية في مقدار انكشاف الحقائق الكبرى للقلب ودرجة تصديقه لهذه الحقائق، ودرجة استحضاره لها، هذه المقدمة الأساسية والشرط الضروري لأي عملية تزكويّة ضمن الإطار الإسلامي. سنأتي بعد قليل في الوسائل التفصيلية بإذن الله تعالى، كل وسيلة لا تصلح ولا يكون لها قيمة ولا شأن إذا ما كانت هذه الحقيقة الأولى والأساسية حاضرة ومستَحضرة.

لذلك أنت ألا يلفت انتباهك حين تسمع حديث جبريل حين جلس مع النبي ﷺ، وجاء الحديث عن الإسلام وما فيه من أصول وأركان، ثم بعد ذلك الإيمان، ثم بعد ذلك الإحسان كدرجة

عُليا فوق الإسلام والإيمان، حرِّر هذه الدرجة الآن، وحّل النص النبوي الذي قاله النبي ﷺ في تعريف الإحسان؛ ستجد أنه استحضار القضية الأساسية: "أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّه يَرَاكَ".

سؤال: هل يصح أن يكون الإنسان مسلمًا إذا أعتقد أن الله لا يراه، يعني أنه غائب عن الله، تائه في هذه الأرض قد فات الله سبحانه وتعالى؟ طبعًا أنت ترى أنك مسلم، فأنت مؤمن أن الله يراك، هي الفكرة أين؟ الفكرة في الاستحضار، وحين تقول الاستحضار لا شك نحن لا نتكلم عن تمارين ذهنية يقوم بها الإنسان مع شيء من التركيز ودرجة معينة من الصفاء حتى يستطيع الاستحضار، ليست هكذا. نرجع إلى النقطة الأولى التي قدمتْ فيها وهي أن التزكية رزق، الاستحضار رزق، استحضار هذا رزق؛ لأنه لما تقول استحضار هو وصف، لكن هو ليس إجراءً، يعني ليست قضية.. طبعًا هو ممكن الإنسان يحاول فيه، لكن هي ليست إجراءً.

يلفت انتباهي دائمًا في الحديث الصحيح في البخاري حين قال النبي ﷺ: "إنَّ أهلَ الجنةِ لَيتراءَون أهلَ الغُرَفِ من فوقِهم ، كما تُراءون الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ في الأُفُقِ". أهل الجنة وهم في الجنة في أنوار فوق مثل أنوار الكواكب، هذه مقامات عُليا، أهل الغُرف، فقال الصحابة: " يا رَسولَ اللَّهِ، تِلكَ مَنَازِلُ الأنْبِيَاءِ لا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟" فقال النبي ﷺ: "بَلَى، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا باللَّهِ وصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ".

سؤال: الذين كانوا يتراءون الغرف تحت؛ هل هم آمنوا بالله وصدقوا المرسلين أم لا؟ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وإلا لِما دخلوا الجنة، ولكنهم يتراءون أقوامًا لا يبصرون من درجة علوهم إلا أضواء، أو يعني شيء يدلهم على تلك المنازل العالية، لا يرون تفاصيلها، والذي يدركونه أنها مقامات عالية وشريفة! حين يأتي التعريف النبوي لأصحاب هذه المقامات لم يزد عليه الصلاة والسلام على أن عرّف مقامهم بالتعريف الذي لا يكون المرء مسلمًا إلّا به! ولكن أين القضية؟ أين المعقد والحل في هذا السؤال؟ هو والله أعلم في درجة التصديق، وفي دوام الاستحضار، "رِجَالٌ آمَنُوا باللَّهِ وصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ"، فكان إيمانهم بالله أعلى من الإيمان العادي، وكان تصديقهم بالله تصديقًا في درجة في غاية العظمة والعلو والشرف.

ولذلك أبو بكر رضي الله تعالى عنه الذي هو أشرف هذه الأمة بعد نبيها عليه الصلاة والسلام، ما الذي تميّز به من حيث المميزة الكبرى؟ التصديق. حسنًا في حادثة الإسراء والمعراج –أو غيرها– لو جاء رجلٌ وسمع خبرًا من النبي ﷺ، فقال "أنا لا أصدق"، يكون مسلمًا أو لا يكون مسلمًا؟ لا يكون مسلمًا، تكذيب النبي ﷺ كفر، أليس كذلك؟ حسنًا أبو بكر الصديق الذي تميّز به هو التصديق بالنبي ﷺ، حسنًا أليس كل المؤمنون كانوا مصدقين بالنبي ﷺ! هي القضية هذه بالضبط، هي الدرجة والمنزلة العلو.

لذلك بقدر الاستحضار، وبقدر درجة علو اليقين والتصديق؛ بقدر ما تترتب الآثار على هذا اليقين وهذا التصديق. وإلا فإنك ترى أن الإنسان كل ما ضمُر في قلبه التصديق والاستحضار، تراه يكاد يكون كافرًا في أفعاله، يعني يفعل أفعالًا أنت تتساءل هل أنت تؤمن بالله وباليوم الآخر حتى تفعل مثل هذا؟ ولذلك هذه هي القضية وهذه هي المعادلة.

مقدمة وسائل التزكية، وشرط وسائل التزكية، وخلاصة وسائل التزكية ليست معقدة أبدًا، ولا طويلة التفاصيل، ولا كثيرة الذيول، وإنما هي نفس قضية المبتدأ في أصل الإسلام، اللهم أنها إلا الدرجة والمستوى، والرتبة من التصديق، واليقين.

ولذلك **كثمرة عملية** من هذه الوسيلة: إياك أن تستهين في بحثك، في تعبدك، في ذكرك، في صلاتك، بالمعلومات أو بالتعبُّدات أو بالأذكار المتعلقة بالأصول الكبرى، قائلًا في نفسك أن هذه معروفة! هو السر كل السر في المعروفة، والشأن كل الشأن في المعروفة، و"لا إله إلا الله" إذا كانت هي التي تُدخل الإنسان في الإسلام فهي من أعظم ما يُرقّي الإنسان مقامات عند الله سبحانه وتعالى، هي نفسها لا إله إلا الله التي أدخلت الإنسان الإسلام!

ولذلك **إذا شعرت أن دائرة من دوائر شؤم الذنب التفَتْ عليك وصارت محيطة بك، وتكاد تغلق عليك الأفق؛ فاكسرها! اكسر ذلك القيد والطوق بـ"لا إله إلا الله"**، لا إله إلا الله من صميم القلب وخالِصِه، بعلمٍ ويقينٍ وصدقٍ، "لو كانت السموات والأرض حلقه لقصمتهن لا إله إلا الله"، لا تبحث في أوراد تفصيلية خاصة، وصعبة ومعقدة قال بها بعض الأولياء، لا، هذه القضية ليست هكذا.

هذه –كما قلت– هي الثمرة من الوسيلة التزكويّة الأولى وهي: لا تبحث عن ما يُرقّيك وعن ما يقدّمك عند الله سبحانه وتعالى، وعن ما يتخلص به من المشكلات والذنوب و..و.. إلى آخره، في أشياء بعيدة، وإنما اجتهد لتحقيقها في أصول التعبُّدات ومنطلقاتها الأساسية. وذكرتُ لكم بعض الشواهد وإلا فالحديث يحتمل أكثر من ذلك، وفي واحدة من دروس غيث الساري –نسيت الدرس كم– تكلمت فيه عن هذه القضية بنوع من الإسهاب، يعني أظن الدرس كان مدته ساعة ونصف. هذه الوسيلة التزكويّة الأولى، وكما قلت هي من القسم الأول الذي هو شامل للأمرين.

٢) العلم بالله ﷻ:

الوسيلة التزكويّة الثانية، وهي يعني كالشرط كذلك، كما قلت في القسم الأول، هذه الوسيلة هي **العلم بالله سبحانه وتعالى**.

العلم بالله هو أشرف العلوم، وهذه الجملة ربما سمعناها كثيرًا، ولكن لا تستطيع أن تقتنع بهذه القضية قناعةَ حق اليقين إلا إذا عشتها. أنت تستطيع أن تتصور معرفيًا، فتقول: العلم بالله أشرف العلوم لأنه متعلقٌ بالله سبحانه وتعالى الذي هو أعلم من كل شيء، وأعزّ من كل شيء و.. و.. إلى آخره، وبالتالي العلم المتعلق به هو أشرف شيء. هذه معلومة نظرية جميلة ومنطقية، ومرتبة ورائعة، لكن العلم بالله أن يكون علمًا يُعاش، وتشعر وتلمس آثاره في حياتك، هكذا تكون للجملة هذه قيمة استثنائية غير القيمة العامة التي تأخذ شرفها من شرف تراكيبها المعرفية.

العلم بالله سبحانه وتعالى والحديث عن الله الموصل إلى العلم به هو الذي استغرق من كتاب الله سبحانه وتعالى المساحة العظمى –إذا صحت التسمية– أو استغرق الموضوعات الأساسية أو استغرق قدرًا كبيرًا من الآيات. والعجيب –وهذه قضية في غاية الأهمية– أنك إذا تأملت الآيات والسور التي جاءت تفضيلها على لسان النبي ﷺ ستجد أنها متعلقة بالله سبحانه وتعالى، فأعظم آية هي آية الكرسي، وآية الكرسي خالصة في الحديث عن الله. لاحظوا يا جماعة: "أيَّ آيةٍ في كتابِ اللَّهِ معكَ أعظَمَ؟" فكر أُبي بن كعب، وهذه ميزة التربية النبوية، كانت تحلق بهم في الآفاق العلوية بحيث أن أُبي بن كعب لما أراد أن يفكر في الجواب عن السؤال النبوي، ما هي أعظم آية في كتاب الله، القاموس الذي أخذ يبحث به، المعيار الذي يُصفّي به من الآيات، كان معيارًا متعلقًا بالمقامات الإيمانية

والتزكوية، والحديث عن الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذه نتيجة التربية النبوية أساسًا. لم يبحث عنها في مواضيع أخرى. فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فضرب النبي ﷺ قائلًا: "لِيَهنِكَ العِلمَ أبا المنذِرِ". هذه آية الكرسي.

أعظم سورة؟ الفاتحة، حديث عن الله سبحانه وتعالى وعن خلاصه العبودية له.

السورة التي تعدل ثلث القرآن؟ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾. وأراد النبي ﷺ أن يبين للناس عظمتها كما في الحديث الصحيح –وهذا في البخاري ومسلم– لما قال: "احْشِدُوا، فَإِنِي أُرِيدُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكُم ثُلثَ القُرْآن". فاجتمع الصحابة وانتظروا، جالسين متهيئين أن يُقرأ عليهم الآن عشرة أجزاء أو ثلث القرآن، فخرج النبي ﷺ فقرأ عليهم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾، وقال: "تَعْدِلُ بثُلُث القُرْآن". لاحظوا الأسلوب، حتى يعزز قيمة ومكانة هذه السورة في النفوس.

حسنًا، **ما العلاقة بين العلم بالله سبحانه وتعالى وبين التزكية؟** العلاقة هي من بوابة الوسيلة الأولى. الوسيلة الأولى قلنا هي دوام استحضار الحقائق، استحضار الحقائق إذا كان تفصيليًّا فهو أعلى وأشرف وأعظم من الاستحضار الإجمالي، وأعظم تفصيل يمكن أن يؤثر في إدخال الحقائق الكبرى هو الاستحضار التفصيلي المتعلق بالله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته، وفرق كبير بين أن يكون استحضارك المعنى المتعلق بالله هو معنى الوجود والشهود فقط أو الشاهديّة، وبين أن يكون المعنى تفصيليًا. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ المؤمنُ المهَيْمِن﴾، هذه التي تقرأها كثيرًا في ختام سورة الحشر، إذا كان كل اسم منها حين تلفظ بحروفه فأنت تنقش من قلبك معنى العلم بدلالات وحقائق هذه الأسماء؛ هذه التزكية أو ما ينتج عن هذا الاستحضار وهذا العلم من التزكية الناتجة عن إدراك الحقائق الكبرى، وأنك تقرأ كلام من هذه صفته، وتقف بين يدي من هذه صفته، وتطلب من هذه صفته سبحانه وبحمده؛ هذا من أعظم الوسائل التي تقود الإنسان إلى التزكية؛ لأن من يدرك هذه العظمة المتعلقة بالله سبحانه وتعالى في العلم، والحكمة، والعزة، والفخر، والرحمة، و.. إلى آخره؛ ستكون تعبُّداته ومراقبته لله، وابتعاده –في

شقيّ التزكية: في التصفية وفي الزيادة- مُختلفًا عن من لا يستحضر هذه الحقائق المبنية على العلم بالله سبحانه وتعالى.

ولذلك الله سبحانه وتعالى يذكر في كتابه شيئًا من آثار العلم بالله وأثرها في التزكية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وأحيانًا تأتي مجملة دون ذكر العلم بالله، ولكن فيها الحديث عن الله وأثره، ولكن أنت تقرأ من داخلها قضية العلم.

وأنا دائمًا يلفت انتباهي قول مريم عليها السلام حين جاءها جبريل فخافت؛ لأنه جاءها على صورة بشر سوي فظنت السوء فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾؛ لأنها هي تعلم أن هذا الأسلوب هو الذي يبعدها عن المعاصي، هي أرادت تستجير فقالت ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.

وكذلك ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾، وهنا فيه معنى التذكُّر، تذكُّر الله سبحانه وتعالى، ولذلك تجد بخلاف ذلك في سوره البقرة في فقدان معنى العلم بالله والخوف منه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، هذا الذي من هذا النمط وهذا الصنف لا تقدر تأمنه على شيء أبدًا، لأن أنت عندك حدود معينة، يوجد هوى. لكن في طبقات المفترض أن سوط التذكير بالله يُبعد عنها، لذلك تعرفون الثلاثة الذين أُطبقت عليهم الصخرة، كان أحدهم الذي قال "كانت لي ابنة عم فلما جلست منها موضوع الرجل بامرأته، قالت: اتق الله"، فقام من ذلك الموقف، هذا الآن أثر الخوف من الله والعلم به. هذه الوسيلة الثانية من الوسائل العامة والتي كانت في المقدمة.

٣) إدراك مركزية العمل في الإسلام وبذل الوسع فيه:

الوسيلة الثالثة وهي مفهوم، وفي نفس الوقت عمل. مفهوم **أن يكون العمل لديك هو الأساس وهو الغاية وهو المركز**، وأن تؤمن أن الإسلام دين عمليٌّ وليس دينًا نظريًّا، نعم هو مقدماته نظرية ومعرفية، ولكنه دين عمليٌّ.

قد تقول **ما علاقة هذا بالتزكية؟** كان عندي رابط وثيق ومهم جدًا بين هذه القضية وبين التزكية؛ الآن كما مر معنا في المحاضرة الأولى من أهم وظائف النبي ﷺ ماذا؟ يزكيهم. حسنًا افتح صفحات السيرة حتى ترى أين تجد يزكيهم، أين كانت في حياة النبي ﷺ مع أصحابه؟ هذه الآن من أهم الوظائف ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والحِكْمَةَ﴾، أين كانت ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؟ أين كانت في شواهد السيرة النبوية؟ واحدة من أهم الشواهد في السيرة النبوية هي: أنه زكّاهم بتربيتهم على أن العمل هو الأساس وهو المبدأ، وأن هذا الدين من أول يوم تدخل فيه إلى آخر يوم تدخل فيه هو دين عمل صالح، ليس دين إنك تأتي فتوسّع من دائرة الأمور النظرية وتلغي أو تقزِّم أو تحجِّم من دائرة الأمور العمليّة.

ولذلك تعلمون أن النبي ﷺ كان يكره كثيرًا من المسائل. كذلك تعرفون أن واصب بن سمعان قال: "مكثت في المدينة سنة ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة". هذه قضية مهمة، يعني يقول: أنا لم أهاجر حتى أسأل، كان أحدنا إذا هاجر لا يسأل أو لم يرضَ له النبي ﷺ أن يسأل. ليس المقصود من السؤال أنه توجد قضية محددة يحتاجها الإنسان، لكن الفكرة أن الثقافة المعيارية التي كانت عند الصحابة لما يكونوا مع النبي ﷺ. هنا لاحظوا الفرق بين المهاجر وغير المهاجر، هذا فيه تفريق بين الناس، بالاصطلاح المعاصر "النخبة" الذي يُربّون تربية خاصة، وبين الناس الذين تماسوا مع النبي ﷺ تَماس محدود. لذلك في البخاري أيضًا وفي مسلم، أنس رضي الله عنه قال: "كان يعجبنا أن نأتي الرجل الأعرابي العاقل فيسأل النبي ﷺ" حتى يستفيدوا؛ لأنهم يعلمون أن النبي ﷺ لم يكن يستحسن الأسئلة من الصحابة القريبين منه. واضح الفكرة؟

حسنًا **ما القضية؟** هي القضية ليست أنه أشكلت عليّ قضية، لا، القضية أنه كثرة السؤال، أن تكون قضية السؤال هي الأساس، هي المتكررة، يعني الخيط الناظم أو الحبل الواصل بين النبي ﷺ وصحابته لم يكن هو الحبل الذي هو أسئلة، وأسئلة وأسئلة، كان هو حبل العمل والعمل.

فهذه كانت تربية النبي ﷺ لأصحابه، وهي التزكية، وهذا موضوع مهم وشريف. ولذلك لما قال النبي ﷺ: "إنَّ الله فرض عليكم الحجَّ فحجُّوا"، قال قائل: يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: "لَوْ قُلتُ نعمْ لَوَجَبَتْ". ثمّ قال النبي ﷺ في هذا الحديث أو في ما اتصل به قال: "إنَّمَا هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ

بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عن شيءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ". هذا النص معياري في تربية النبي ﷺ لأصحابه، وأن **المبتدأ عملٌ**، **والوسط عملٌ**، **والنهاية عملٌ**، ولم يكن أي عمل، كان من أول الأيام عمل فيه بذل، وصبر، وثبات، وتضحية، إلخ.

حسنًا أنت في سياق بحثك عن وسائل التزكية؛ لا تستغرق في القضايا النظرية وتقول أنا سأقرأ خمسة عشر كتبًا في التزكية حتى أفهم التزكية ووسائلها النظرية، لا، التزكية عمل يبتدئ الإنسان ويتوسط وينتهي في حياته ضمن مظلة الإسلام وهو يعمل ويكدح متطلبًا رضا الله سبحانه وتعالى، هذا العمل منه ما هو في التصفية والتخلية، ومنه ما هو في الزيادة، ولكن في الأخير المبدأ والمركز هو العمل. فهذه ثلاث أمور كمقدمات لوسائل التزكية المشتركة أو وسائل التزكية العامة.

وسائل تزكوية متعلقة بالتصفية والتطهير والتخلية:

الآن ننتقل إلى **القسم الثاني وهو: وسائل التزكية المتعلقة بالتصفية والتخلية**، قبل الزيادة؛ لأن التطهير فالزيادة. الوسائل التزكويّة من القسم الثاني المتعلقة بالتصفية والتطهير:

١) تربية النفس على مخالفة الهوى:

الوسيلة الأولى: تربية النفس على مخالفة الهوى، حتى لو لم يكن الهوى في سياق التربية ذاك محرمًا وإنما على خلاف ما هو فاضل، لاحظوا أنا لم أقل مجرد أن تخالف بالمرة! وإنما أقول تربية النفس على مخالفة الهوى حتى إذا جاء ذاك الهوى المحرم تكون نفسك قد تعودت منك على قول "لا"، أما جعل النفس مُنسابة بلا حدود وبلا قيود وبلا ضوابط؛ فهذا من أصعب النفوس التي يمكن أن تسعى إلى التزكية خاصة من باب التطهير والإبعاد والتنقية؛ لأنه أيها الذي يحتاج إلى قول "لا" أكثر؟ التنقية أم الزيادة؟ التنقية هي التي تحتاج إلى قول "لا" أكثر؛ لأن التنقية من ماذا؟ -تكلمنا في المحاضرة السابقة- تنقية القلب من أمراضه وتنقية النفس من أهوائها، فهنا يأتي الكبر والعجب والشهوات، هذه دواعي قوية حتى تقول "لا"، لابد أن تكون هناك ممارسة وتربية، علمت نفسك على قول "لا".

لذلك من منكم يتعجب من تكرار النبي ﷺ الوصية لذلك الرجل حين قال له: "أَوْصِنِي"، قالَ: "لا تَغْضَبْ"! أنا ممن يتعجب من هذا الحديث، تخيل يعني واحد جاء إلى النبي ﷺ: "يا رسول الله أوصني"، يريد الآن **وصية** خاصة من النبي ﷺ له، فالنبي ﷺ يقول له: "لا تَغْضَبْ"، وهذا يذكرنا بقضية، المدرسة النبوية مدرسة بسيطة ليست معقدة، وما يقدم فيها كلها نقاط توضع على الحروف كل واحد في مكانه، وهي أساسات تقدم نفسًا مهذبة صالحة مزكّاة تتفق مع مراد الله ﷻ منها، "لا تَغْضَبْ"، فَرَدَّدَ مِرَارًا –هكذا في البخاري– فَرَدَّدَ مِرَارًا، يعني "يا رسول الله أوصني" قال: "لا تَغْضَبْ"، "أوصني"، قال: "لا تَغْضَبْ". "لا تَغْضَبْ"، الغضب في الأساس هو شعور اختياري أم شعور يطرأ على الإنسان؟ نفس شعور الغضب؟ اضطراري، يعني هو في الأساس أنت لا تكون جالسًا فتقرر أن يتلبسك شعور اسمه الغضب، لذلك "لا تَغْضَبْ" قال العلماء أنها متوجه إلى معنيين:

١) اجتنب الأسباب التي تؤدي بك إلى الغضب.

٢) اجتنب الآثار السيئة التي يمكن أن تنتج عن الغضب إذا غضبت.

فلا تغضب، لا تدخل في هذا السياق أو في هذا الطريق أو في هذه الدائرة أو في هذا المجال الذي تعلم أنه يغضبك وأنك إذا غضبت ستفعل، وتفعل، وتفعل، فلا تغضب، اجتنب الغضب، اجتنب أسبابه.

وحتى لو وقعت في بعض أسبابه فبدأت نفسك في فورة الغضب فحاول أن تقاوم. هذا كله فيه قول «لا» للنفس؛ لأن الغضب شعور طبيعي، فـ"لا تَغْضَبْ" هذا فيه تربية على قول "لا"، وعلى كفّ النفس عن مقتضيات الشعور الذي يمكن أن يأتيها. ولذلك يأتي النبي ﷺ كما في الحديث الصحيح في صحيح مسلم فيقول لأصحابه: "ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ"، يا جماعة أي إنسان يريد أن يغوص في أعماق النفس ويفهم النص هذا سيعلم مقدار شرف هذا النص؛ لأن الشدة المادية والحسية أمرها سهل، يعني أن يحصّل الإنسان وسائل يقوي بها جسده وخاصة الآن أمر سهل، وقد يكون بعضها أصلًا يعني دعنا نقول موهبة وشيء فطري، يعني خُلق الإنسان قويًّا، بعض الناس يُخلق بهذا، لكن قد يكون وهو بهذه الشدة الظاهرة المادية الملموسة خفيفًا، خفيف العقل سفيهًا كما قال الله ﷻ في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن

﴿يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ جبناء. الشاهد أن من أهم الوسائل أن تربي نفسك على معنى "لا".

هذي ممكن أن تمارسها -كما قلت- حتى في أمور ليست محرمة، يعني مثلًا إنسان عنده شهوة مفرطة للأكل ويأكل كميات كبيرة جدًا، حقيقة أن تعلّم نفسك حتى لو في بعض الأحيان أنه خلاص الآن توقف، فقط من باب أن أعلّم نفسي أنه ليس كل شي تريدينه يجب أن يحصل. ولذلك هذه من الحكمة في الصيام، وهذا معنى مُراعى في الشريعة، معنى تربية النفس على أن: لا، ليس كل ما تريدين يتحقق، ليس كل ما تشتهين يجب أن يصلح أو أن يكون.

هذا طبعًا كما قلت في مقامات، قد يكون من باب مقامات الأفضلية، وقد يكون في بعض المقامات الواجبة؛ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، هذه الآية مباشرة وصريحة في هذا المعنى، نهى النفس عن الهوى ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

هذه إذن الوسيلة الأولى: تربية النفس على مخالفة الهوى، هذه وسيلة عملية حقيقية ومؤثرة وفاعلة في تعويد النفس على الابتعاد عمّا يخالف التزكية.

٢) دوام التوبة وتجديدها ولزوم الاستغفار:

الوسيلة الثانية -وهي من وسائل التخلية والتنقية-: **التوبة أو دوام التوبة وتجديدها ولزوم الاستغفار**. نحن في بداية اللقاء ذكرنا أن التزكية ماذا؟ بالضبط الوسائل سبب، وحصول التزكية رزق وهبة من الله ﷻ، وذكرت الدليل على ذلك: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾.

الآن واحدة من أعظم العوائق والموانع من أن يأتيك الرزق الإلهي -المتمثل في الهداية الخاصة، وفي جنة الدنيا، وفي إدراك الحقائق العالية، وفي أن تكون على المقامات العالية في التعبد- واحدة من أهم العوائق والموانع الحائلة بينك وبين هذا الرزق هو: تراكم الذنوب والمعاصي؛ ولأجل ذلك فإن من أعظم الوسائل التي تعين على التزكية هي تخليص النفس من الآصار والأثقال، وما ينقض الظهر من الأوزار حتى تكون النفس صالحة وقابلة لنزول الرزق الإلهي عليها بالهداية الخاصة والولاية، وما إلى ذلك.

فللتخلص من الموانع -واحدة منها هنا، مانع الذنوب- الوسيلة الأساسية هي التوبة والاستغفار.

بدون مبالغة التوبة والاستغفار تستحق محاضرات وجلسات تتكلم فيها ليس عن يعني تفاصيل معقدة، وإنما تتحدث فيها عن حقيقة التوبة والاستغفار، وفَهم هذه المقامات التعبدية وآثارها على النفس وآثارها على الإيمان. أنت تستغفر الله ﷻ لماذا؟ أو تتوب لماذا؟

- **لماذا نتوب؟**

١) هناك من يستغفر الله ﷻ لطلب الرزق، ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

٢) وهناك من يستغفر الله ﷻ لطلب الولد ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

٣) وهناك من يستغفر الله ﷻ -هذا أعلى الآن- مستحضرًا ذنبًا معيّنًا، أنه يا ربي أنا أستغفرك وأتوب إليك من ذلك الذنب.

٤) وهناك مقام أعلى يستحضر فيه معنى النقص البشري اللازم والدائم ودوام التقصير، ومعنى الكمال الإلهي والعظمة الموجبة لمزيد من الحق الذي كان ينبغي أن أكون عليه فلم أكن عليه؛ فلذلك أستغفرك يا ربي. هذا مقام أعلى وأشرف؛ ولذلك لا تتعجب -بناء على هذا المقام وهذه الزاوية- أن يكون أول ذكر تقوله بعد الصلاة أستغفر الله، مع أنه إذا فكرت فيه كمناسبة أساسية أنك ممكن بعد الصلاة تقول "الحمد لله ﷻ" على طول، يعني يا رب الحمد لله أن وفّقتُ لهذه العبادة، لكن "أستغفر الله ﷻ"؟ يقومون الليل ويسجدون ثم يختمون هذا القيام وذلك الابتهال وتلك المناجاة بالاستغفار ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، وأنتم تعلمون المستغفرين بالأسحار من أبرز سمات هؤلاء أنهم كانوا قد جعلوا قبل ذلك الاستغفار صلاة وعبادة.

لذلك أيها الكرام الاستغفار بملاحظة المعنى الذي ذكرت وهو باختصار مرة أخرى: معنى أنني يا ربي مهما عملت فأنا مقصّر حتى في عبادتك، وإذا نظرت إلى مقامك وعظمتك سبحانك وما تستحقه وما ينبغي وما يجب علي هو شيء لم أبلغه ولن أبلغه، وفوق ذلك تجرأت وعصيت، وتجرأت واتبعت هواي الذي نهيتني عن اتباعه؛ فبملاحظة هذا كله تخرج استغفارًا من صميم القلب فيه معنى

الخشوع والخضوع، والاعتراف بالتقصير والضعف، والفقر، والاحتياج، وعظمة الله ﷻ وكماله... إلى آخره. هذا الاستغفار هو من أعظم وسائل التزكية، وهو الاستغفار الذي يحرق الذنوب حرقًا ويبعدها عن الإنسان، فيكون قلبه مؤهلًا وصافيًا صفاءً يجعل الرزق من الله ﷻ يأتي ويؤثر في ذلك القلب ويملؤه. هذه الوسيلة الثانية في القسم الثاني.

٣) المجاهدة:

الوسيلة الثالثة: وسيلة المجاهدة. هذه قريبة من الأولى، لكن ما الفرق بين الوسيلة الأولى والثانية والثالثة؟ الوسيلة الأولى قلنا تربية النفس على مخالفة الهوى، المجاهدة ماذا؟ **المجاهدة في الاثنين؛ التصفية والتحلية**، يعني:

١) مجاهدة النفس في التخلص من مشكلاتها.

٢) ومجاهدة النفس لتحقيق العبادات والزيادة والنماء.

فالمجاهدة تأتي بعد التربية، يعني أول شي يكون عندي أساس للتعامل مع نفسي في قول لا أو شيء، ثم تأتي المجاهدة لإدامة مثل هذا المعنى والاستمرار عليه. وكذلك هي أوسع في المقامين.

هذي المجاهدة يجب أن نعيشها -بعيدًا أيضًا عن الشعارات العامة- يا جماعة لازم نعيش المجاهدة، يعني لا تنتظر زكاءً للنفس زكاءً حقيقيًّا وأنت لم تجرب بعد مجاهدة النفس، يا جماعة أنا عندما أقول مجاهدة أنت تتخيل الجهاد الذي تُبذل فيه الأرواح، ويُقاتل فيه الأعداء، ويُخاطر فيه بالنفس، ذاك الجهاد، هذا مشتق منه، مجاهدة، جهاد. فليس المقصود بمجاهدة النفس هي أن واحدة من الذنوب التي والله يا ليت أني أعملها لكن لن أفعلها، ليست هذه المجاهدة! هذه صورة دُنيا من صور المجاهدة، المجاهدة قد تستمر مع الإنسان سنة سنتين في مقابل شيء معين، المجاهدة في مقامات الترقي هذي مجاهدة مستمرة وعالية جدًا. تعرفون عبارة سفيان "جاهدتُ نفسي عَلى قِيام الليل عِشرين سنة"، ثم ماذا؟ "تلذذتُ به عشرين سنة" أو كما يعني ورد عنه.

هذي المجاهدة المستمرة يجب أن نعيشها، وهي -والله- من وسائل التزكية المفيدة والمثمرة والعملية التي تلمس أثرها. والعجيب أن أثر المجاهدة -بين قوسين- خُرافي! أحيانًا لا تتوقع آثاره، فأنت مثلًا

تجاهد نفسك للتخلص من سلبية ما أو إشكال ما دعنا نقول مرض قلبي مثلًا كِبر أو عجب، أو مرض من أمراض الشهوات أيًّا كان، تجاهد نفسك للتخلص منه، ويكون هذا هدفك، فتُفاجأ بعد المجاهدة أن الله ﷻ يورثك ما لم يكن يخطر منك على بال مما يعاكس أو يخالف هذا الذنب الذي أنت سعيت وجاهدت لتتخلص منه فقط! فتكتشف أن المجاهدة تُنتج ليس فقط التخلص مما تريد التخلص منه، وإنما هي وسيلة أساسية لزيادة الخير الذي لم يكن يخطر منك على بال. ومصدَاق هذا أو شاهده أو مؤيده قول الله ﷻ في سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وأظن الشيخ مُحَمَّد الأمين الشنقيطي علّق على هذه الآية فقال: "حذف سبحانه الطرف المجاهَد"، من المجاهَد هنا؟ كل ما يمكن أن يجاهَد لكن بشرط أنه "فينا"، والذين جاهدوا فينا الكفار والأعداء والمنافقين، والذين جاهدوا فينا الشيطان ووسوسته وأذاه وتسلطه، والذين جاهدوا فينا أنفسهم وأهواءهم؛ ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

وهذي الطريقة طريقة قرآنية في حذف مثل هذه الأشياء حتى تكون الآية عامة. ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ في ماذا؟ في كل شيء يهدي للتي هي أقوم. وهكذا في القرآن تجد مثل هذا المعنى. إذن هذي الوسيلة الثالثة.

٤) التوكل على الله ﷻ في ترك المعاصي:

الوسيلة الرابعة -ممكن تستغربوا منها قليلًا-: **التوكل**، التوكل المفترض أن يأتي أين؟ في التحلية أليس كذلك؟ في التحلية سواء مفردًا أو ضمن المقامات الطبيعية؛ لأن أصلًا سيأتينا في التحلية أعمال القلوب، هذا أساس في التزكية، لكن أردت أن أُفرد التوكل هنا في وسائل التزكية المتعلقة بالتصفية، لماذا؟ لفتًا للانتباه إلى شيء مهم جدًا جدًا وهو درجات التوكل. وهذا سبق التنبيه إليه، والإمام ابن القيم ذكره.

- **درجات التوكل:**

١) أتوكل على الله ﷻ في جلب منفعة خاصة دنيوية، عبادة أو ليست عبادة؟ عبادة. التوكل على الله ﷻ في طلب الرزق، عبادة عظيمة جدًا.

٢) أتوكل على الله ﷻ في الهداية، أتوكل على الله ﷻ في التخلص من ذنب ما، أتوكل على الله ﷻ في تحقيق عبوديته، هذا مقام شريف من مقامات التوكل وهو الذي قصدته هنا.

٣) وأعلى منه هو التوكل على الله ﷻ في نصرة الدين والقيام، بطريق الأنبياء، ونفع الخلق.. إلى آخره.

إذن من وسائل التزكية المتعلقة بالتصفية: التوكل على الله ﷻ، ذلك الذنب الذي أرّقك ولم تستطع التخلص منه وبذلت الأسباب، وأنت تبذل لا زلت؛ اجعل من ضمن الأسباب ومن أساسها التوكل على الله ﷻ في التخلص منه، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ نستعين بك على عبادتك أيضًا. هذه من أهم صور الاستعانة، والتوكل هو استعانة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تساوي ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، فالتوكل استعانة.

إذن هذه مجموعة وسائل، أربعة وسائل، ليست هي كل شيء، وليست هي حتى يمكن نصف الوسائل، ولكن هذا المقام مقام سريع أو مقام متوسط لا يحتمل التطويل أكثر، خاصة وأن عندنا القسم الثالث والأخير، وأحاول أن أعجل به أيضًا وهو وسائل تزكوية في الزيادة والنماء.

وسائل تزكوية متعلقة بالزيادة والنماء (التحلية):

١) العناية التامة بأعمال القلوب اهتمامًا وعملًا:

الوسيلة الأولى: العناية التامة بأعمال القلوب اهتمامًا وعملًا.

اهتمامًا: أن تكون في قاموس أولوياتك، **وعملًا**: أن تراعيها في التعبد أكثر مما تراعي التعبدات الظاهرة. وإذا كنت قد قلتُ في قضية التوبة والاستغفار أنها تحتاج محاضرات، فأعمال القلوب تحتاج محاضرات ومحاضرات ومحاضرات! لا أدري كيف يمكن أن أختصر هنا في دقيقة أو دقيقتين أو ما قاربهما قضية أعمال القلوب، لكن الذي يمكن أن يقوله الإنسان بشكل سريع هو أن حقيقة التزكية إنما تكون في القلب؛ ولذلك ثبت في البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنه قال: "التَّقْوَى ها هُنا. ويُشِيرُ

إلى صَدْرِهِ" تعلمون هذا الأسلوب. وكذلك قال النبي ﷺ في البخاري أيضًا: "أَلَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وهي القَلْبُ"، وفي الصحيح أيضًا "إنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وأَمْوالِكُمْ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأَعْمالِكُمْ" فذكر القلوب أولًا. وأعمال القلوب ما لم تكن من قاموس أولوياتك اهتمامًا وعملًا فلا تنتظر التزكية، وهي اللُّب وهي المنطلق وهي المنتهى.

ولذلك من أراد -دعنا نقول- القفزات الهائلة والعالية في مقامات التعبد؛ فلتكن محور التعبدات لديه القلب، ثم البدن بعد ذلك يأتي تبعًا، وما كل شيء في الإسلام من عبادات ظاهرة إلا هي تبع للقلب وما يقع فيه وما يقرُّ فيه.

أعمال القلوب طبعًا يدخل فيها الإخلاص، المحبة، الخشية، الرضا.. إلى آخره من أعمال القلوب التي تعلمون. لكني يعني مركزها في سياق التزكية هو: الإخلاص، والاتجاه بالقلب لله ﷻ وحده.

٢) الدعاء:

الوسيلة الثانية من وسائل التزكية في الزيادة والنماء: **الدعاء**. يلفت انتباهي حديث دعاء النبي ﷺ في صحيح الإمام مسلم -وهو دعاء جميل ولطيف، وإن كان مختصرًا جدًّا، ولكنه في قضية التزكية، وحتى فيه تقرير حقيقة؛ قال النبي ﷺ في دعائه: "اللهُم آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أنت خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أنت وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا"، الآن هذا وسيلة، ما هي؟ الدعاء.

لكن ألا يذكركم شق الدعاء الثاني بالمقدمة الأولى؟ -أول مقدمة قبل أول شيء، قبل استحضار الحقائق- الرزق، أنه "وَزَكِّهَا أنت خَيْرُ مَن زَكَّاهَا"؛ يعني يا ربي أنا أدعو وأعمل ولكن حقيقة التزكية التي تحصل إنما هي منك فأنت خير من يزكّي النفس، ألست أنت من خلقها؟ وأنت الذي تعلم أدواءها؟ وما يتخللها وما يعتريها؟ فأنت وليها ومولاها. مختصر جدًّا يعني حتى من اتساع المعاني التي فيه واختصار الألفاظ، أول ما تنتهي منه تريد أن تعود ثانيًا وتقوله وتفكر فيه، بعدها تعود ثالثًا تقوله حتى تستوعب فقط المعاني الأساسية التي فيه.

"آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أنت خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أنت وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا" دعاء واضح وصريح في تحقيق قضية التزكية، أول شيء فيه أن التزكية رزق ثم فيه استحضار تلك الحقائق، "أنت وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا".

ولذلك ليكن ضمن دعائنا:

١) اعتبار واستحضار أنه وسيلة من وسائل التزكية.

٢) ومن مضامينه الدعاء الصريح بقضية التزكية.

٣) وخيره هو ما دعا به النبي ﷺ فهو من وسائل التزكية المهمة.

٣) الصلاة:

الوسيلة الثالثة من وسائل التزكية في الزيادة والنماء: **الصلاة**. وهذه تحتاج محاضرات، الصلاة من هذه الجهة فعلا تحتاج حديثًا طويلًا، من جهة التزكية، وجهة قيمة الصلاة وشرفها، لكن نأخذ سريعًا.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، الآن تنهى عن الفحشاء والمنكر أليست صريحة في التزكية؟ في قسم التصفية أليس كذلك؟ ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ﴾ وهي زيادة ونماء، ﴿تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ وهذا في إثبات العلاقة بين القسمين في التزكية، بين قسم الزيادة والنماء وبين قسم التطهير والتنقية. فالصلاة زيادة ونماء، ومن آثارها أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر التي هي قواطع وعوائق.

السؤال الذي يستحق جوابًا طويلًا -فقط هكذا يعني سؤال لكن لن نجيب عنه- السؤال هو لماذا؟ لماذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ الصلاة ليست عمل قلب في الأساس، الصلاة عمل بدني، هو أكيد أنه عمل يدخل القلب فيه لكن الصلاة كتصنيف هل هي عمل قلبي أم بدني؟ هي عمل بدني، هو القلب يعمل فيه تعبدات كثيرة أثناء الصلاة، لكن التصنيف الأساسي للصلاة هل هي عمل بدني؟ أم عمل قلبي؟ عمل بدني. الخشية ألا تكون لها آثار على البدن؟ ولكنه عمل قلبي، نصنفها عمل قلبي، الإخلاص عمل قلبي، المحبة عمل قلبي.

حسنًا ثمَّ ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ما المقصود فيه؟ ما معنى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ نحن ممكن أن نقول أن **الصلاة –المذكورة في الآية هنا– لها ثمرتان:**

١) ثمرة النهي عن الفحشاء والمنكر،

٢) وثمرة ذكر الله ﷻ.

وثمرة ذكر الله ﷻ أكبر من ثمرة النهي عن الفحشاء والمنكر؛ لأنه أصلًا الصلاة مُقامة لذكر الله ﷻ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. هذه أظنها أحد الأقوال في تفسير الآية، ويوجد غير هذا القول كذلك.

لكن السؤال الذي يستحق فعلًا البحث والتأمل: لماذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ فيا ليت يكون في نشاط فيها مشاركة أي شيء.

أحد الحضور: الأشياء التي نعملها قبل الصلاة –الوضوء، والذكر، والمشي إلى المسجد..– تؤثر على الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر؟

لها تأثير لكن يعني الشيء الأساسي وهو الوارد في النص الصلاة نفسها. أنا لا أريد جواب الآن، أقصد هذا السؤال يستحق البحث الطويل، لكن مَعْقِد الجواب كله في فهم حقيقة الصلاة، وما مقدار التعبُّدات الهائل الموجود في الصلاة.

٤) التفكر:

الوسيلة الرابعة من وسائل الزيادة والنماء: **التفكر**. ونحن اليوم في واقع أو في زمن إذا تريد أن تصفه من هذي الجوانب التزكويّة تقول: "زمن محاربة التفكر" أو "زمن مزاحمة التفكر"، يعني أنت في واقع أو في زمن عندما تذهب إلى رحلة في يوم من الأيام، في السنة، في الليل ترى النجوم تقول: الله! نجوم في السماء –هي تطلع كل ليلة– سبحان الله شفت منظر عجيب! تخيل في نجوم في السماء.

والله يا جماعة مشكلة حقيقية، يعني هو الإنسان ما يحتاج غفلة زيادة، هي أصلًا نفسكُ تغفل ونفسُكُ تألف المعتاد، فإذا كان من المعتاد أن ترى الشمس والقمر دائمًا فلن تكون الآية عندك تحتاج استحضار حتى تستحضر. لذلك الله ﷻ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ

آياتِهَا﴾ ماذا؟ ﴿مُعْرِضُونَ﴾. ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

التفكر في آيات الله ﷻ الكونية هو من أعظم الأمور التي تزيد اليقين والإيمان، والدليل على ذلك، إذا قلنا في البداية أن درجة اليقين هي من أعظم القضايا في التزكية والوسائل، فإنك إذا قرأت الآيات في آخر سورة آل عمران تدرك أن من أعظم وسائل زيادة اليقين واستحضار الحقائق الكبرى: التفكر، وذلك أن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أُولي الألباب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، هذه واحدة من الوسائل، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

النتيجة وما نتج عن هذا التفكر وما صاحب هذا التفكر: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾، وهذا فيه اتجاه إلى الحقيقة رقم اثنين، التي تكون بعد حقيقة الوجود أصلًا.

هنا ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ هذا حديث عن الوجود أم عن الحكمة والغاية؟ الحكمة والغاية، يعني ما بعد الآن أنه يا رب أنت حي تسمعنا وترانا ونحن ندعوك، ولكن الآن نحن نعترف بحقيقة أنك ما خلقت هذا باطلًا، والوسيلة إليها كانت التفكر، يتفكرون ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، وهذه الآية عظيمة وفيها دروس كثيرة جدًا جدًا، وربطها بالذكر أيضًا فيه دروس كثيرة جدًا.

٥) كثرة ذكر الله ﷻ:

لذلك **الوسيلة الخامسة** والأخيرة هي: **الذكر**، **كثرة ذكر الله ﷻ**. ما علاقة ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾؟

دعوني أسألكم سؤالًا آخر، هل يوجد دليل من القرآن –غير هذه الآية التي في سورة آل عمران– يفيد بأن الذاكر يستفيد ما لا يستفيده غير الذاكر؟ لا تبحثوا عن دليل مباشر، أنا في بالي آية الدليل فيها غير مباشر يعني –لا بأس حتى لو هناك شيء مباشر حتى تأتي الآية التي في بالي– يعني أنا أريد

أن أصل لفكرة أن الذكر له تأثير على النفس والقلب غير تأثير الحسنات الكثيرة التي تُدوَّن لك، يعني أنا لا أتكلم عن الذكر الآن من جهة كثرة الأجر، وإنما -كما قلت لكم في البداية أن الواحد إذا تحدث عن قضية يحاول أن يربطها بأصل الموضوع- أنا أتحدث الآن عن الذكر من جهة أثره على النفس، أو في الاستفادة من المدخلات التي تدخل عليك من العِبَر والآيات.

الله ﷻ عندما قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ قال قبلها: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ وكأن التفكّر دون قلبٍ ذاكرٍ ولسان ذاكرٍ يُحدِث أثرًا فيه ضعف. أريد آية أخرى فيها أن الذاكر يستفيد ما لا يستفيده غير الذاكر من أمر آخر يشترك بعض الناس فيه؟

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾. السؤال هو **ما العلاقة بين أن يكون الرسول ﷺ أسوة لمن ذكر الله ﷻ كثيرًا**؟ فهمتم الفكرة التي أردت الوصول إليها؟ أن الذكر له تأثير على طبيعة استفادتك من أسباب الهداية أصلًا. إذا كان التفكر ووجود السماوات والأرض وسيلة لزيادة الإيمان فهي ليست لأي أحد، إنما هي لأولي الألباب الذين يذكرون الله ﷻ أول شيء قبل أن يتفكروا.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ هذه الآن ماذا؟ أشياء موجودة مخلوقة يمكن التفاعل معها بطريقة تؤدي إلى الإيمان، ويمكن التفاعل معها بطريقة تؤدي إلى الكفر كما في المنطق الإلحادي المعاصر، صاروا ينظرون إلى السماء ويرون أنه عالم فسيح لا معنى له ونحن نأتي في طرف الكون ولا أدري ماذا، وكان المفروض أن تكون الأرض في نصف القياسات لكي تكون صحيحة! لماذا الافتراض هذا؟ لاحظ هذا شيء خارجي الآن. الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾ ولكن لمن؟ ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ من هم؟ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

نفس الشيء ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ حسنًا وجود رسول الله ﷺ في ذلك المكان مع نفس من سمعوا ذلك الخطاب لم يكن لجميعهم أسوة حسنة بل كان لبعض -في نظرتهم هم- عدوًا.. إلى آخره، كما كان المنافقون في وقت النبي ﷺ الذين كانوا يستمعون نفس الآيات ويحضرون نفس المجالات. لذلك لا تتعجب أن يكون وصف المنافقين ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أنه هو ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾، المنافقون الذين كانوا في وقتهم كانوا لا يذكرون الله ﷻ إلا قليلًا، وبالتالي هم لم يستفيدوا أصلًا من النبي ﷺ؛ لأن وجود السبب الخارجي للهداية والنور لا يساوي الرؤية من الجميع، وإنما يساوي الرؤيا لمن لديه بعض الاستعدادات للرؤية ممن منَّ الله ﷻ عليهم في ذلك.

لذلك كثرة الذكر وسيلة من أعظم وسائل التزكية فهي: تصلح القلب، وتطمئنه، وتجعله قابلًا للاستفادة من العِبر والآيات التي تزيد الإيمان واليقين ويُهدى بها الناس إلى الحق.

وصلِّ اللهم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين. تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال، وغفر لنا ولكم السيئات والزَّلل.